البطلَ المجرمَ لا يضيع وقتَه فيذبح ويقتل الضحايا. وحدِّثْ ولا حرج عن عمليات التجميل، وتبديلِ الجنس من ذكر إلى أنثى والعكس بالعكس؛ فما تبقّى «شيء طبيعي» في فرنسا. والأمرُ نفسُه ينطبق على «الڤياغرا» وعلى الاستيلاء على أعضاء الحيوان. كما ينطبق على الدعارة المزدهرة في غابة بولونيا حيث العجبُ العجابُ.

ولا تفوت باردو عملياتُ التلقيح الاصطناعي عند الحيوان والإنسان، فتدينها لأنها متشبِّثة بالفطرة، ولكنّها الفطرة المؤنسنة. وهي تنتقد المسؤولين أعنفَ نقد، وتلوم المدارسَ التي فَقَدت النظام، خصوصًا متى عَلِمْنا كيف يَزْدهر تعاطي الحشيش في الثانويات. من الطبيعي، والحالةُ هذه، أن تتوق الكاتبة إلى مرحلة الخمسينيات والستينيات، وهي عندها مرحلة ذهبية سعيدة حيث كان كلّ شيء متوازنًا من غير تطرّف. لقد كان الجيران يتبادلون الزيارات، وكان الراديو يهدهد الأحلام. أما الآن فقد تزايد الجشعُ المادي الذي يدلّ على فقر روحي فكم من أغنياء لئام، وكما من فقراء كرام! وتضيف إلى ذلك مخاطرَ العولمة التي تَقْضي على التراث الوطني، وادّعاءَ الثقافة (إذ كلّما كان المرء وسخًا ومبتذلاً ازداد حظُّه في الميراث الثقافي للبلد!). ويطول حديثُها عن الحمية الغذائية، وعن المأكولات الأميركية، وعن المعنى الهستيري للنجاح في المجتمع، وعن أمراض السيدا... حقًا إنّ الأرض ـ تقول الكاتبة ـ تحوّلتْ مصحًا عقليًا، ويقينًا أنّ الإنسان ازداد قسوةً. فسقيًا للماضي الجميل عندما كان الوطن، كما تقول بريجيت، يسمّى فرنسا الحلوة La Douce France!

خاتمة

صرخة في الصمت، ثورة وحنين كتابٌ يُقْرأ بلذةٍ، ويُطْلعنا على النقد الموجّه إلى مجتمع بأسره. ونحن أَحْوج ما نكون إلى الاطلاع على ما يجري في الغرب من تيارات وميول متضاربة. وإنْ صحّ أنّ الحضارة الغربية لا تَهْرم لأنّها لا تضيق ذرعًا بالنقد، وبذلك تتجاوز نفسَها باستمرار، فكم يكون جميلاً لو تصدّى أديبٌ أو مفكّرٌ من عندنا لنقد أوضاعنا الحضارية بوصفها واقعًا معيشًا ملموسًا لا صراعًا فكريًا وحسب. إنّنا نتوق إلى صرخات متلاحقة في الصمت، بعيدًا عن الماضوية، كي لا يطول الليلُ العربي لكنّ الجذوة تكاد تخمد، وأحسب أنّها لا تَلْتهب إلاّ بنقد أصيلٍ صادق. فهلْ مَنْ يَصْرخ في هذا الصمت العربي الدامس؟!

بيروت

مُنحت جائزة القصة القصيرة، في مسابقة الكاتب الشابّ للعام ٢٠٠٢ التي تنظمها مؤسسة عبد المحسن القطّان ضمن برنامجها للثقافة والعلوم، إلى ماجد عاطف على مجموعته متون، التي نجحت في غربلة تفاصيل بالغة الخصوصية في الحياة اليومية الفلسطينية ثم إعادة تركيبها بحيث تدخل في سياقات إنسانية كونية واسعة الدلالة وبارعة الترميز، وتُزاوج ما بين حسّ المأساة والملهاة في ظلّ الاحتلال.